صفات الأصوات بين القدماء والمحدثين – صفة البينية أنموذجا

Characteristics of voices between the ancients and the moderns - the adjective betweenness as a model

نصيرة شيادي

[1] جامعة أبي بكر بلقايد (تلمسان)، nassira.chiadi@univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 2023/01/05	تاريخ القبول26./03./ 2023	تاريخ النشر 15./04./2023.

الملخص		**Abstract**
تتناول هذه الدراسة صفة البينية من خلال تسليط الضوء على مفهومها وطبيعتها والحروف التي اختصت بهذه الصفة عند القدماء والمحدثين لنحاول الوقوف على نقاط الاتفاق والاختلاف بين القدماء والمحدثين ولأي مدى أفاد المحدثون من دراسة الأقدمين الصوتية؛ هذه الأخيرة التي أغنت الفكر الصوتي الحديث بمعارف صوتية نالت إعجاب علماء الأصوات المحدثين في وقت اعتمدوا فيه على الوسائل العلمية الحديثة لفحص صفات الأصوات بينما اعتمد القدماء على حس مرهف، وقوة ملاحظة ذاتية. لقد تبين من خلال هذه الورقة البحثية مدى مطابقة المفاهيم الصوتية القديمة للحروف البينية مع ما توصل إليه الدرس الصوتي الحديث سواء ما تعلق بطبيعتها ومميزاتها، أو ما تعلق بتقسيمها.		This study deals with the adjective between the ancients and the modernists by highlighting its concept, nature, and the letters that were specialized in this capacity among the ancients and the modernists. The latter, which enriched modern vocal thought with phonetic knowledge, won the admiration of modern phonetics at a time when they relied on modern scientific methods to examine the characteristics of sounds, while the ancients relied on a sensitive sense and the power of self-observation. It has been shown through this research paper the extent to which the ancient phonetic concepts of interline letters correspond to the findings of the modern phonetic lesson, whether related to their nature and characteristics, or related to their division.

كلمات مفتاحية: الحروف البينية؛ صفات الأصوات؛ الحروف المتوسطة؛ التراث؛ الحداثة.		**Keywords** :Interstitials; qualities of sounds; middle letters; heritage; modernity.

المؤلف المرسل: نصيرة شيادي، Nacera83@hotmail.fr

1.مقدمة:

لاشكّ أنّ الاهتمام بالصّوت والأصوات اللّغوية ليس جديدا؛ وإنّما هو قديم قِدم النّطق الإنساني، وقد اهتمّ به القدماء من الهنود واليونانيين إلاّ أنّ اهتمام الهنود كان أوسع وأدقّ، ولم يُضارع الهنود في ذلك إلاّ العرب؛ فللعربيّة تفرّد في مجال الأصوات يشهد به أهلها وحتّى الأجانب عنها، فلقد أشاد بعض الباحثين الغربيين بجهود العرب في علم الأصوات على الرّغم من قلّة الإمكانات، وعدم وجود الآلات الحديثة التي توفّرت للمحدثين، يقول برجشتراسر الألماني:"لم يسبق الغربيين في البحث الصّوتي إلاّ قومان من أقوام الشّرق وهما الهنود والعرب."[1] ويقول فيرث:"إنّ علم الأصوات قد نما وشبّ في خدمة لغتين مقدّستين هما السّنسكريتية والعربية."[2]

فالعرب إذن لهم قدم راسخة وجهود فائقة في منظومة البحث اللغوي بكاملها لذلك لم يكن شاذّا ولا غريبا أن يورثنا هؤلاء الأئمة تراثا لغويا ضخما يحملُ تفكيرا لغويا ناضجا لم يزل بعض جوانبه تُضارع بل تفوق ما يُقابلها من وجوه النظر في الدرس اللغوي الحديث.

ومن هذا التراث العلمي الزاخر نلمسُ قيمة ما طلع علينا به هؤلاء القوم من جهود صوتية ناضجة هي اليوم محلّ إعجاب وتقدير أئمة اللغة في الغرب، يقول إبراهيم أنيس:"لقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث في الأصوات اللغوية شهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربية والنطق العربي ولا سيما في الترتيل القرآني، ولقُرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربية، واتّصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفي الحس، دقيقي الملاحظة فوصفوا لنا الصوت العربي وصفا أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم"[3]

وبناء على الحس المرهف، والملاحظة الدقيقة برع العرب القدماء في تحديد مخارج الأصوات وصفاتها؛ فهم أدركوا في وقت مبكر جدا أنّ الصفات تعتبرُ صنو المخارج في الدراسة الصوتية بعامّتها، وهما معا يُحدّدان الوُجود الفعلي للصوت؛ وذلك لأنّ معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار ومعرفة الصفة بمنزلة المحك والمعيار، وقد نظر العلماء إلى صفات الحروف من جهات مُتعددة، واختلفت ألفاظهم تِبعًا للغرض الذي يتناولونه؛ فالخليل(ت175هـ) نظر إلى صفات الحروف من حيث علاقتها بالأبنية وكيف أنّ بعضَ

الحروف يُحَسّنُ البناء وبعضها يعرف منه العربي الدخيل، أمّا سيبويه(ت180هـ) فيُعدُّ أوّل من دوّنَ المصطلحات الصوتية في كتابه لذلك يُعدّ المصدر الأول لجميع من ألّف في هذا الباب؛ فقد ذكر جملة من المصطلحات الخاصّة بصفات الحروف.[4]

ونظر إلى هذه الأخيرة من حيثُ علاقتها بالإدغام قال:"وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرفَ ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تُبدله استثقالا كما تُدغم وما تُخفيه وهو بزنة المتحرك."[5]

وقد قسّمها في هذا الباب ناظرا إلى علاقتها بالإدغام من عدّة جهاتٍ (الوضوح والخفاء في السمع ويمثلهما صفتا الجهر والهمس) مرور الصوت في المخرج بدءا من الانحباس التام في الحروف الشديدة إلى حرية المرور في الألف، ومثّل هذا المرور عدّة صفاتٍ(الشديدة والرخوة وما بينهما)، المنحرف، التكرير، اللينة، الهاوي، تفخيم الصوت وترقيقه، انحصار الصوت في مكانينِ وعدمه ويُمثّلهما (الانفتاح والإطباق)[6] وجاءت بعضُ الصفات منثورة في كتابه بحسب الموضوع والباب المعقود لها؛ ففي باب الإمالة ذكر أنّ هناك حروفا تمنعُ الإمالة فجاء بصفتي (الاستعلاء والاستفال)[7]

يمكننا القول إنّ كتاب سيبويه قد نال حصة الأسد في جمعه لجلّ الصفات الخاصة بالأصوات، وما سنحاول الوقوف عنده في هذه الورقة البحثية صفة البينية أو ما يعرف بالتوسط والهدف من ذلك هو محاولة الوقوف على آراء القدماء والمحدثين فيما يخص هذه الفئة من الأصوات، وبالتالي فالإشكالية التي تطرح نفسها هاهنا هل كان هناك اتفاق بين القدماء والمحدثين في مجموع الأصوات البينية؟ وما هي الحدود الفاصلة التي سنّها كل منهما للتعريف بالأصوات المتوسطة.

وللإجابة على الإشكالية المطروحة سرت وفق منهجية تتمحور حول التعريف بالصفة والعلاقة بينها وبين المخرج، ومن ثمّة التعريف بصفة البينية وأصواتها عند القدماء والمحدثين لنصل إلى معالم الاتفاق والاختلاف بينهما فيما يخص هذه المجموعة من الأصوات.

2 . تعريف الصفة:

يقدّم مصطفى رجب تفريقا بسيطا بين النفس والصوت والحرف وصولا إلى الصفة مُبيّنا بذلك المراحل التي يمكننا من خلالها الوصول إلى صفة الحرف، فيقول:" يراد بالصفة كيفية تولّد الحرف وخروجه من مخرجه؛ وذلك لأنهم يسمّون الهواء الخارج من الرئة إن خرج بطبعه دون أن يحتكّ بأوتار الصوت(نفسا) فإن وجّه الإنسان بإرادته هذا الهواء إلى أوتار الصوت الموجودة في الحنجرة فاحتكّ بها وحدث له تموّج وتذبذب مسموع فإنهم يسمونه حينئذ(صوتا)، ثم هذا الهواء المصحوب بهذه التموجات الصوتية يتوجه إلى مقطع من مقاطع الفم أو الحلق؛ أي إلى حيّز محدد منها، فإذا قرّبه وانحصر فيه تولّد الحرف، ثم الكيفية التي يكون عليها مرور هذه التموجات الصوتية الممزوجة في النفس بذلك المقطع هي ما تسميه ب(صفة الحرف)، فبالمخرج إذا تعرف ماهية الحرف ويتولد شكله ويتحدد، وبالصفات يحصل التمييز بين الحروف، وخاصة تلك التي تتحدد مخارجها أو تتقارب"[8]

إذن، يتبين لنا من خلال هذا الكلام أنّ الصفة الصوتية هي الكيفية أو الكيفيات التي تظهر في الحرف أثناء حدوثه في مخرجه، فتميّزه عن غيره من الحروف عما اشترك منها معه في موضع النطق، وتتمثل تلك الكيفيات في أمرين أساسين هما:" تحديد طريقة مرور النفس في المخرج عند النطق بالصوت وتحديد حالة الوترين الصوتيين في أثناء ذلك"[9]

إنّ صفات الأصوات هي الحالات التي تصاحبها عند النطق وهي" عوارض تعرض للأصوات الواقعة في الحروف من الجهر والرخاوة والهمس والشدة وأمثال ذلك"[10] ومعنى هذا أنّ الحرف تعرف ماهيته وكميته بالمخرج كما تعرف هيئته بالصفة؛ ذلك أنّ الصفة هي التي تميز بعض الحروف المشتركة في المخرج ولولاها لكانت الحروف المشتركة حرفا واحدا ولكان الكلام بمنزلة أصوات البهائم التي لها مخرج واحد وصفة واحدة.

ونجد أنّ نحاة البصرة قد راعوا ذلك جيدا عند تعرضهم للنظام الصوتي للحرف؛ حيث عالج التراث الصوتي عند البصريين جملة من صفات الأصوات وهي بمثابة مصطلحات تاريخية في اللغة. فالمنظومة التي نستخلصها بمقتضى منظور النحاة العرب البصريين تكشف لنا عن تمييزهم بين قواعد القول والخصائص المنتمية إلى مجال التعبير. ولعل هذا التمييز هو الذي وجه التقسيم الذي وضعوه للصفات إلى صفات ذاتية

لا بد منها من أجل المحافظة على الفهم وإلى صفات عرضية ليست مما لا بد منه؛ فالصفات الذاتية هي الصفات اللازمة للحرف من همس وجهر وشدة ورخاوة وغير ذلك وهي التي تخصّ ذات الحرف وتميزه عن حروف أخرى؛ مثال ذلك صفة الجهر لحرف(الزاي) فهي صفته الذاتية في العربية كما أنّ صفة الهمس لحرف(السين) هي صفته الذاتية بالنسبة(للزاي)؛ لأنّ هذه الصفة هي التي تميز(السين) من(الزاي) إذ أنّ مخرجهما واحد وهما من الأصوات الصفيرية ولا يتميزان إلا بهذه الصفة. بهذا المنظور فإنّ نظام التقابل بين الحروف يبنى على الصفات الذاتية التي تميز بين تلك الحروف.[11]

أما الصفات العرضية فهي تلك التي تنشأ عن هذه الصفات الذاتية كترقيق المستفل وتفخيم المستعلي وهي صفات يستوجبها سياق صوتي محدد؛[12] من هذا المنطلق يمكن القول إنّ هناك صفات ذات مقابل مثل الجهر الذي يقابله الهمس والشدة التي تقابلها الرخاوة وصفات لا مقابل لها، وصفات بينية(متوسطة) محور هذه الدراسة.

3. أهمية الصفات:

ركّز القدماء والمحدثون على أهمية الصفات في تحديد الحرف، فلا يكفي تحديد المخرج لمعرفة الحرف؛ بل لا بدّ أن يضاف إليه الصفات المصاحبة له، وفي ذلك يقول مكي:" واعلم أنه لولا اختلاف الصفات في الحروف، لم يفرّق في السمع بين أحرف من مخرج واحد، ولولا اختلاف المخارج لم يفرق في السمع بين حرفين أو حروف على صفة واحدة، وقد تقدم منه جملة فافهمه، فعليه مدار علم مخارج الحروف وصفاتها، وقوتها وضعفها، وتقاربها وتباعدها، وإدغام بعضها في بعض"[13] وقال:" ولو كانت المخارج واحدة، والصفات واحدة، لكان الكلام بمنزلة أصوات البهائم التي لها مخرج واحد وصفة واحدة لا تفهم"[13]

فهذه حكمة جعلَ الله عليها هذه الحروف في أصوات بني آدم لتخرج بهذه الصفات عن جنس أصوات البهائم؛ لأنّ أصوات البهائم لا اختلاف في مخارجها ولا في صفاتها، ولذلك لا تفهم، فباختلاف صفات الحروف في ألفاظ بني آدم، واختلاف مخارجها، وتباين طباعها فُهم الكلام وظهر المعنى القائم الذي في نفس المتكلم للمخاطب وعُلم المراد"[14]

هذا كلام القدماء عن أهمية الصفات، ولم يخرج كلام المحدثين عن كلامهم.

قال برجستراسر:" وعلى ذلك فلا يكفي لمعرفة الحرف وتمييزه تحديد المخرج وحده، دون علامة ثانية هي صفة الحرف"[15]

وقال أحدهم:" والواقع أنّ المخارج...والصفات التصنيفية...هي الأساس الذي يقوم عليه بناء التطريز اللغوي"[16]

فهل نجد اختلافا بين كلام القدماء والمحدثين؟

وقال مكي:" وتكون الحروف من مخرجين، وهي مختلفة الصفات، فهذا غاية التباين، إذ قد اختلفت في المخارج والصفات وتكون من مخرجين متفقة الصفات، فهذا أيضا تقارب بين الحروف من جهة الصفات وتباين من جهة المخرج. فافهم هذا، فعليه مدار الحروف كلها"[17] وقال:" وربما اجتمع للحروف صفتان وثلاث وأكثر. فالحروف تشترك في بعض الصفات، وتفترق في بعض، والمخرج واحد، وتتفق في الصفات والمخرج مختلف، ولا تجد أحرفا اتفقت في الصفات والمخرج واحد؛ لأنّ ذلك يوجب اشتراكها في السمع فتصيرَ بلفظ واحد، فلا يفهم الخطاب منها"[18]

فهل خرج هذا عن كلام المحدثين حيث يقول أحدهم:" إنّ أيّ حرفين في النظام التشكيلي في أي لغة لا بدّ أن تكون بينهما جهة اختلاف واحدة على الأقل، وهذه الجهة إما أن تكون مخرجا أو صفة، ولو اتفق حرفان في المخرج والصفة لما صح أن يسميا حرفين، بل إنما يكونا حرفا واحدا. وإنّ نظرة واحدة إلى جدول الحروف لتُبين كيف لا يتفق اثنان منها في المخرج والصفة كليهما، بل لا بد من اختلاف بينهما يجعل منهما مكانة في المنظمة التطريزية للحروف"[19]

وللصفات فوائد أخرى تستفاد من هذا التمييز بين الحروف وقد لخصها ابن جماعة في ثلاث فوائد:[20]

1 . معرفة ما تحتاج إلى التعديل ليحسن في السمع مما لا تحتاج.

2 . مقابلة الحروف مما لا يشاكلها في القوة والضعف من المعاني، بدليل جعل القضم للشيء اليابس والصلب لقوة القاف، والخضم للشيء الرطب لضعف الخاء ورخاوتها.

3 . فضيلة ما لكل حرف على غيره ليعرف ما يجوز إدغامه في مقاربه وما لا يجوز.

ولنضرب على كل فائدة من هذه مثالا، فمثال للأول ويؤخذ من القراءة القرآنية إذا وقف الواحد منا على القاف من كلمة (الحق) دون أن يتبعها بصويت القلقلة، بل أتبعها بنفس، فهذا يُعدّ لحنا في القراءة وذلك اللحن لا يغير المعنى بل هو لحن صوتي خاص بالأداء القرآني.

أما الفائدة الثانية فقد عقد لها ابن جني(ت 392هـ) بابا في الخصائص أسماه: باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني فليراجع ثمة"[21]

وأما الثالث فهو الموجود في كتب الصرف وهو باب الإدغام حيث تعرف بالصفات أن حروف الصفير وهي الصاد والسين والزاي لا تدغم في ما قاربها من الحروف في المخرج وهي النطعية واللثوية لنداوة صوتها.

4 . العلاقة بين الصفة وبين المخرج:

إنّ الأصوات إذا كانت يجمعها حيز صوتي واحد؛ أي أنها تشترك في مخرج واحد، فإنها في هذه الحالة تضلّ بحاجة إلى أساس آخر يفرق بين كل واحد منها، وبين الآخر في نطاق المخرج الواحد، وهنا يأتي دور الصفات التي تتصف بها الأصوات، والتي تعدّ" الأساس السمعي للتفريق بينها، وهذه الصفات نفسها تختلف من حيث الأساس الذي تنبني عليه، فقد يكون التبويب مبنيا على أساس طريقة التدخل في مجرى الهواء الرئوي الذي يعتبر المادة الأولى للكلام"[22] إذن فالعلاقة بينهما هي علاقة بين" ذات الصوت المادية المحسوسة وصفاته التي تشكل الملامح المميزة له، وخاصة إذا كانت المجموعة المعينة من الأصوات تنتمي إلى مخرج واحد، فعلى سبيل المثال: الأصوات (ز، س، ص) هي مجموعة الصفير، ولكن تتميز [ز] بالجهر و[س] بالهمس و[ص] بالإطباق"[23]

5 . البينية عند القدماء:

هو أن يحدث اتصال بين عضوي النطق، كما هو الحال في الأصوات الشديدة، إلا أنّ الصوت يجري في مجاري أخرى، فيكتسب الصوت صفة الرخاوة أيضا.[24]

ومصطلح بين الشدة والرخاوة من مصطلحات سيبويه أطلقه على الأصوات التي لم تتم فيها صفة الشدة، كما لم تتم فيها صفة الرخاوة، وإنما كانت تجمع الصفتين. وسيبويه لم يصرح بمصطلح (البينية) إلا في صوت العين قال:" أما العين فبين الرخوة والشديدة"[25]

وسار علماء العربية على نهج سيبويه في تصنيف الحروف إلى شديدة ورخوة، لكن عدّوا كل ما عداها قسما ثالثا، سموه الحروف التي بين الشديدة والرخوة، وهو ما سمي في وقت متأخر بالحروف البينية والمتوسطة"[26]

وقدم أهل العربية كالزمخشري (ت538هـ) تعريفا للبينية فقال:" والكونُ بين الشدة والرخاوة أن لا يتم لصوته الانحصار ولا الجري"[27] ووضح بعض المتأخرين من أهل التجويد تعريف الزمخشري، فمن ذلك قول المرعشي:" وأما التوسط بين الشدة والرخاوة فهو عدم كمال احتباس الصوت وعدم كمال جريه"[28]

6 . الخلاف في حروفها عند القدماء:

حصر سيبويه الأصوات البينية(المتوسطة) في خمسة أصوات هي(العين واللام والنون والميم والراء)[29] ويبدو من وصفه أنه لا يعدّ الأصوات الثلاثة (الواو والياء والألف) بين الرخوة والشديدة، ولا سيما أنّ ضابطه في أصوات هذه الفئة هو أنها"حرف شديد جرى فيه الصوت"[30] بينما وصف هذه الأصوات الثلاثة باتساع المخرج، إلا أنّ المبرد (ت 285هـ) جعل هذه الأصوات منها قائلا:"وهذه الحروف التي تعترض بين الرخوة والشديدة هي شديدة في الأصل وإنما يجري فيها النفس؛ لاستعانتها بصوت ما جاورها من الرخوة كالعين...وكالنون...وكحروف المد واللين التي يجري فيها الصوت للينها"[31]

وقد صنع ابن جني صنيع المبرد فعدّ الأصوات بين الشديدة والرخوة ثمانية يجمعها قولك(لم يروعنا) يقول:" والحروف التي بين الشديدة والرخوة ثمانية أيضا، وهي: الألف، والعين، والياء، واللام، والنون، والراء، والميم، والواو، ويجمعها في اللفظ(لم يَروِ عنّا)، وإن شئت قلت (لم يُروّعنا) وإن شئت قلت:(لم يَرعَوْنا)"[32]

يبدو للدارس من خلال نص ابن جني عدة أمور:

أ . أنه أدخل الألف من جملة هذه الحروف مع أنها أشدّ الحروف رخاوة وامتدادا للصوت نظرا لطبيعة مخرجها. واعترض المرعشي على إدخال الألف حيث يقول:" لكن أقول: كيف يكون الألف المدية من (البينية) مع أنّ الظاهر أنها أكمل حروف الرخو رخاوة؛ إذ معنى الرخاوة: اللين وجريان الصوت"[33]

ب . إنّ الأمثلة التي قدمها للواو والياء تحتمل أنه يقصد بهما حينما يكونان غير مديين. ومما جاء مؤيدا لهذا ما قاله المرعشي:" والظاهر أنّ المراد من الواو والياء ما ليسا بمدّيين كما يشهد به وقوعهما في (لم يَرو عنّا)[34]

وهذا ما جعل بعض كتب التجويد تقتصر على (الواو والياء) دون (الألف) وفي ذلك يقول ابن الطحان الأندلسي(ت560هـ):" وهي: النون، والواو، واللام، والياء، والعين، والميم، والراء، يجمعها (نُولّي عُمر)، فإنها بين الرخاء والشدة"[35]

ج . وعلى احتمال أن يكون ابن جني قد قصد إدخال حروف المد من جملتها، وهو الذي ذكرته بعض كتب العربية، [36] فقد اعترض بعض أهل التجويد بشدة على من أدخل حروف المد من جملة هذه الحروف، وفي ذلك يقول السخاوي:" فإن قلت: فقد عدّوا حروف المد هذه مما بين الرخاوة والشديدة، وجمعوها فقالوا:(لم يرو عنا) و(ولينا عمر)، فقلت: الذي غرهم في ذلك أن سيبويه لم يعدّها حين عدّ الرخوة، فظنوا أنها خارجة عنها."[37] وقد صرّح برخاوتها حين ذكرها فقال :" ومنها اللينة، وهي الواو، والياء؛ لأنّ مخرجها اتسع لهواء الصوت أشدّ من اتساع غيرهما، كقولك:(وَ وَ وْ) فإن شئت أجريت الصوت ومددت"[37] ثم قال:" ومنها الهاوي، وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو؛ لأنك قد تضم شفتيك في الواو، وترفع في الياء لسانك قِبل الحنك، وهي الألف"،[37] ثم تساءل السخاوي متعجبا:" فكيف تكون بين الرخاوة والشديدة، ولكون بينهما هو أن لا يتم للصوت الانحصار ولا الجري؟"[38]

ثم نقل عن أبي الحسن الرماني(ت 384هـ) قوله عن حروف المد:" ومعنى المد واللين: أنه يمكن أن يمد بها الصوت دون غيرها كقولك:(زيدو) و(زيدي) و(زيدا)، والاعتماد لها ليّن، وإنما يجري الصوت فيها

للمد الممكن بها من أجل جنسها إذا كان ما قبلها منها"،[39] وبنى على كلام الراماني نتيجته النهائية بأن قال:" فهذا كله تصريح بأنها رخوة"[39]

إذا عدنا لعلماء التجويد نجد أنّ عدد الحروف التي بين الشديدة والرخوة (أي البينية، المتوسطة) ثمانية يجمعها (لم يرْوِ عنّا) [40] مثل ما ورد عند ابن جني بينما أخرج بعضهم الواو والياء والألف من الحروف البينية. قال أبو عمرو الداني:" والشديد ثمانية أحرف...وما عدا هذه الشديدة على نوعين: شديد يجري فيه الصوت، ورخو. أما الشديد الذي يجري فيه الصوت فخمسة أحرف، يجمعها قولك: (لم نرع)

العين والنون واللام والراء والميم، اشتد لزومها لموضعها، ثم تجافى بها اللسان عن موضعها فجرى فيها الصوت لتجافيها.أما العين: فتجافى بها اللسان فجرى فيها الصوت لشبهها بالحاء. وأما الراء: فتجافى بها اللسان عن موضعها للتكرير الذي فيها، فجرى الصوت.وأما اللام: فتجافى ما فوق حافة اللسان بها عن موضعها لانحرافها، فجرى فيها الصوت لا من موضع اللام ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك. وأما النون والميم فتجافى اللسان بهما إلى موضع الغنة، وهو الألف، فجرى فيها الصوت..."[41]

وتابع المرعشي القائلين بأنّ الحروف البينية (المتوسطة) خمسة. ثم ناقش مذهب القائلين بأنها ثمانية وقال:" وزاد في الرعاية الواو والياء والألف في البينية وأتى في جمعها بقوله: لم يروعنا. وصرح بأنّ حروف الرخو ثلاثة عشر، فظهر أنّ في هذه الحروف الثلاثة اختلافا في أنها من الحروف الرخو أو من الحروف البينية. والظاهر أنّ المراد من الواو والياء ما ليسا بمديين كما يشهد به وقوعهما في: لم يروعنا، لكن أقول: كيف يكون الألف المدية من البينية مع أنّ الظاهر أنها أكمل حروف الرخو رخاوة، إذ معنى الرخاوة اللين وجريان الصوت"[42]

ونقل أبو شامة في شرح الشاطبية أنّ مكيا عدّ المتوسطة سبعة، وهذا شيء يخالف ما نقلناه عن كتاب الرعاية، ولكنه مذهب يوافق ما يراه المرعشي من إخراج الألف منها، واعتبار الواو والياء غير مديتين، قال أبو شامة:" قال مكي في بعض تصانيفه: الرخاوة فيما عدا الشديدة إلا سبعة أحرف يجمعها قولك(نولي عمر)، فإنها بين الرخاوة والشدة، فأدخل فيها الواو والياء ولم يدخل الألف"[43] ولا نستطيع أن نحدد الآن المصدر الذي نقل عنه أبو شامة هذا النص.

فالحروف الشديدة إذن ثمانية، والرخوة ثلاثة عشر، والبينية(المتوسطة) ثمانية على رأي بعض العلماء، وخمسة على رأي آخرين، والخلاف في الحروف الثلاثة (الألف، والواو، والياء) ويبدو أنّ الذين يعدّون الحروف المتوسطة خمسة هي (لم نرع)، ويعدون الرخوة ثلاثة عشر حرفا . يعتبرون الألف والواو والياء قسما رابعا لا يدخل في أيّ من الأقسام الثلاثة . وهو الظاهر من كلام الداني السابق.

وصرح المرعشي أنّ الحروف الرخوة ستة عشر حرفا بضمها الواو والياء مديين أو لا والألف. لكنه فصل في كتابه (جهد المقل) وفرق بين الياء والواو فإذا كانا غير مديين ألحقهما بالمتوسطة، وإذا كانا مديين ألحقهما مع الألف بالرخوة، بناء على مذهبه في كون حروف العربية واحدا وثلاثين حرفا، وعلى هذا تكون الحروف المتوسطة لديه سبعة.[44]

ويترجح من كل ما سبق ذكره مذهب الداني في عدّ الحروف البينية (المتوسطة) خمسة هي (لم نرع)، على اعتبار أنّ الحروف المتوسطة هي التي يقوم في طريقها عائق كالشديدة، لكن النفس لا ينحصر في مخرجها انحصاره في الشديدة؛ إنما يجد له منفذا يجري فيه جريانه في الرخوة. وكذلك يترجح تفريق المرعشي بين حالتين للواو والياء؛ وذلك باعتبارهما حرفي مدّ مرة، وباعتبارهما ليسا حرفي مد أخرى. ولكني لا أرى أن يجعلا وهما حرفا مد من الحروف الرخوة؛ وإنما تعامل حروف المد الثلاثة (الألف والواو والياء) معاملة خاصة؛ لأنها تعدّ قسما قائما بذاته في مقابل جميع الحروف الجوامد(الصوامت) وتقسيم الحروف إلى شديدة وبينية (متوسطة) ورخوة شيء خاص بالحروف الجوامد. أما الحروف الذائبة (حروف المد الثلاثة) فهي أصوات بائنة من جميع الحروف، وذلك بجريان النفس معها حرا طليقا من غير أن يعترضه تضييق لمجراه كالذي يحدث في الحروف الرخوة.

يبقى بعد ذلك الواو والياء إذا لم يكونا حرفي مد، وكانا من الحروف الجامدة، أنعدّهما من الحروف الرخوة أم المتوسطة؟ إذا أخذنا بالمفهوم السابق للحروف المتوسطة (البينية)، وهو قيام عائق في مجرى النفس لا يحول دون جريانه، فإنّ الواو والياء من هذه الناحية من الحروف الرخوة، وإذا قلنا إنّ الحروف المتوسطة هي ما ليس بشديدة ولا رخوة وراعينا ما في الواو والياء من اللين، أمكن عدّهما من الحروف المتوسطة.

7 . البينية عند المحدثين:

أطلق المحدثون ومنهم تمام حسان [45] تسمية الأصوات الاستمرارية على أصوات (الراء واللام والميم والنون والواو والياء) مستثنيا الألف والعين، متجاهلا التسمية التي أطلقها القدماء كما فعل كانتينو كأنهما رأيا أنّ التسمية غير دقيقة، وهو ما صرح به كمال بشر قائلا:" إلا إذا قصد بها أنها ليست انفجارية ولا احتكاكية وإنما هي نوع مستقل، وكان الأولى بهؤلاء القوم أن يحكموا عليها بأنها متوسطة بين الأصوات الصامتة والحركات"؛[46] بل إنه أطلق عليها تسمية (أشبه الحركات)[47] وكان الأولى أن يسميها) أشباه الصوامت) لأنّ أشباه أصوات اللين مصطلح يطلق على صوتي (الواو والياء)[48] غير المديتين، وكمال بشر يطلق هذه التسمية على الأصوات دون أصوات المد واللين، والشائع الذي عليه المحدثون هو عدم الأخذ بمصطلح (بين الشدة والرخاوة).

ومن جهة أخرى أقر بعض المستشرقين الذين درسوا الحروف العربية التقسيم الذي قسمه القدماء، ووافقوهم على هذه الحروف فيما عدا صوت العين. يقول برجستراسر:" والحروف المتوسطة كلها مجهورة عندهم، وهي (ع، ل، ن، ر، م) فنقول: إنه وإن كانت هذه الحروف إلا العين متمادة، بدون شك، فلهم مع ذلك حق في تميزها عن الحروف الرخوة المجهورة"[49]

وقال شاده:" وأصاب سيبويه أيضا في أنه هناك حروف هي شديدة من جهة ورخوة من جهة أخرى. وعدّ من هذا النوع المشترك: العين واللام والنون والميم والراء"[50]

وقال كانتينو: " فلا يبقى مجال للشك في صحة هذا الترتيب إلا فيما يتعلق بحرف العين. وما عدا ذلك فإنّ الترتيب مطابق لترتيب علماء الأصوات العصريين"[51]

8 . طبيعة الحروف البينية بين القدماء والمحدثين:

طبيعة هذه الحروف عدا صوت العين قائم في أنّ الصوت ينحبس في مخرجها، لكنه يجد له منفذا يخرج منه من غير مخرجها.

ويبدو أنّ هذا التصور هو الذي قام في ذهن العلماء القدماء أمثال سيبويه، والرماني، ومكي، لكنه توسع ليشمل كل صوت لا يتم له كمال الاحتباس، ولا كمال الجري، وفي ذلك يقول الزمخشري:"والكون بين الشدة والرخاوة أن لا يتم لصوته الانحصار ولا الجري"[52]

وعند استعراض سيبويه عن الحروف التي بين الشديدة والرخوة في باب (الإدغام) نجد أنه قد عدّ منها أربعة أحرف هي شديدة في الأصل، لكنها تجد لها منفذا تخرج منه، أما العين فقال عنها:" وأما العين فبين الرخوة والشديدة، تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء"، [53] فقد جعلها قسما مستقلا برأسه، ورددها بين الشدة والرخاوة بدليل أنه بعد أن عدّ الحروف الشديدة والرخوة، قال:" (وأما العين...) ثم أكمل كلامه (ومنها المنحرف...)[53]

وكذلك فعل الرماني عند شرحه كلام سيبويه، قال:" أجدُك قطّبت " هذه الشديدة، وما عداها رخو، إلا أن منه ما لا يجري فيه كجريانه في الرخوة لأنه بين الرخو والشديد، وهو العين، [54] ثم قال عن الحروف الأربعة الأخرى:" من الشديد ما يجري فيه الصوت ولا يخرج من موضعه..." [54]وذكر الأربعة الأخرى، ففرق بينهما وبين العين.

فطبيعة صوت العين عند العلماء القدماء قائم على معنى عدم كمال الاحتباس، كما في الحروف الشديدة، وعدم كمال الجري كما في الحروف الرخوة، ومما جاء مؤيدا لذلك قول الزمخشري:" والكون بين الشدة والرخاوة أن لا يتم لصوته الانحصار ولا الجري، كوقفك على (العين)، وإحساسك في صوتها تشبه الانسلال من مخرجها إلى مخرج الحاء"[55]

وفي المقابل جاء كلام المحدثين على الحروف البينية غير العين مشابها كلام القدماء. وقد لخص أحدهم آلية الحروف البينية بقوله:"ومن الممكن أن يمر الهواء بمجراه دون انحباس واحتكاك من أيّ نوع، إما لأنّ مجراه في الفم خال من المعوقات، كما في صوتي الواو والياء، وإما لأنّ مجراه في الفم يتجنب المرور بنقطة السد أو التضييق كما في صوت اللام، وإما لأنّ هذا التضييق غير ذي استقرار على حاله، كما في صوت الراء، أو لأنّ الهواء لا يمر بالفم، وإنما يمرّ بالأنف، كما في صوتي الميم والنون، وكل هذه الطائفة من الأصوات تسمى الأصوات المتوسطة لأنها ليست شديدة ولا رخوة"[56]

وقال آخر:" يتسع مصطلح الوقفيات عند بعض المحدثين ليشمل الأصوات الأنفية مثل الميم والنون، والجانبية نصف الرنانة،* والجامع بين الاحتباس الفموية، وهذه المجموعة من الأصوات وجود القفل التام في كل وهو ما عرفناه بالالتقاء التام بين العنصرين الناطقين، غير أنّ التكوين الأكوستيكي يختلف بين المجموعتين اختلافا كبيرا ومن ثمّ نؤثر معالجة المجموعة الأخيرة باعتبارها صوامت انطلاقية نصف رنانة"[57]

يلاحظ على النصين السابقين عدة أمور:[58]

أ . النص الأول أُدخل فيه الواو والياء من جملة هذه الحروف بناء على مشابهتها للحركات، وأما شرحه لطبيعة الحروف الباقية فلم يختلف في شيء عن كلام القدماء.

ب . النص الثاني أُعيد فيه كلام سيبويه في عده(اللام والنون والميم والراء) من الحروف الشديدة ولكن بعبارة حديثة.

ج . استخدم في النص الثاني مصطلح الوقفيات مرادفا للشديدة، ومصطلح الانطلاقيات مرادفا للرخوة.

د . لم يعد النص الثاني هذه الحروف متوسطة بل عدها رخوة شبيهة بالحركات.

ومن المميزات التي ذكرها المحدثون لهذه الحروف أنها أوضح في السمع بعد الحركات وحروف المد، ومما جاء في قول أحدهم:" ومن النتائج التي حققها المحدثون أن اللام، والميم، والنون، أكثر الأصوات الساكنة وضوحا، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين، ولذا يميل بعضهم إلى تسميتها (أشباه أصوات اللين)، ومن الممكن أن تعد حلقة وسطى بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين، ففيها من صفات الأولى أن مجرى النفس معها تعترضه بعض الحوائل، وفيها من صفات أصوات اللين أنها لا يكاد يسمع لها أي نوع من الحفيف، وأنها أكثر وضوحا في السمع"[59]

وقد ورد في ثنايا كلام القدماء مشابهة الميم، والنون، واللام، لحروف المد، قال ابن يعيش(ت643هـ) وأما الميم فمشابهه للواو، لأنهما من مخرج واحد، وهو الشفة، وفيها غنة تمتد إلى الخيشوم، فناسب بغنتها لين حروف المد، وأما النون ففيها أيضا غنة، ومخرجها إذا كانت ساكنة من الخيشوم، بدليل أن الماسك إذا أمسك أنفه لا يمكنه النطق بها، وليس لها فيه مخرج معين، بل تمتد في الخيشوم امتداد الألف في الحلق...وأما اللام فإنه وإن كان مجهورا فهو يشبه النون وقريب منه في المخرج"[60]

خاتمة القول:

بعد هذه الجولة السريعة في عالم الصفات وبالضبط صفة البينية أو ما يعرف بالأصوات المتوسطة يمكننا القول إنّ نقاط الاتفاق بين القدماء والمحدثين فيما يخص هذه الزمرة من الأصوات أكثر من نقاط الاختلاف.

. على الرغم من أنّ المحدثين لم يوظفوا مصطلح البينية في أبحاثهم الصوتية إلا أنهم اعترفوا بتقسيم القدماء للأصوات المتوسطة، وفي طبيعتها.

. عدّ القدماء صوت العين من جملة الحروف البينية بخلاف المحدثين الذين أخرجوها منها.

. مصطلح البينية عند القدماء أن لا يتم للصوت كمال الانحباس ولا كمال الجري، على حين ينصرف عند المحدثين إلى التوسط بين الحركات والصحاح بعامة.

. اتفق القدماء والمحدثون على الوضوح السمعي الذي تتصف به الأصوات البينية.

قائمة المراجع:

1 . برجشتراسر،1417 هـ، 1997م، التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصحّحه وعلّق عليه: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، ص11

2 . نادية رمضان النجار، دت، اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، مراجعة وتقديم: عبده الراجحي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية، دط، ص37

3 . إبراهيم أنيس، 1971 م، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، ص 5

4 . تمام حسان،1400هـ، 1979م، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ص 65 وينظر: عمار إيلس البوالصة، 2010م، الفكر اللغوي عند إبراهيم أنيس . دراسة وصفية تحليلية . دار جليس الزمان، الأردن، ط 1، ص 37

5 . سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، دت، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، 4 / 436

6 . نفسه 4 / 434 . 436

7 . الكتاب 4 / 129 . 130

8 . مصطفى رجب: 1429هـ، 2008م، دراسات لغوية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، ص 254

9 . غانم قدوري الحمد،1427هـ، 2006م، ظواهر لغوية في القراءات القرآنية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، ص9

10 . مبارك حنون: مدخل إلى الدراسة الصوتية عند العرب القدماء، ص130 متاح على الشبكة

Http://www.lexico-amel.org/

11 . ينظر: طنطاوي محمد دراز، 1985م، في أصول اللغة، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ص 271

12 . مبارك حنون: مدخل إلى الدراسة الصوتية عند العرب القدماء، ص132

13 . مكي بن أبي طالب: 1404ه،1984م، الرعاية، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، الأردن، ط2، ص 218

14 . نفسه: ص 143 . 144

15 . برجشستراسر: التطور النحوي للغة العربية، ص13

16 . تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص13

17 . مكي بن أبي طالب: الرعاية، ص 156

18 . نفسه: ص 115

19 . تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص155

20 . الجاربردي ابن جماعة، دت، مجموعة الشافية من علمي الصرف والخط، عالم الكتب، بيروت، لبنان، دط، 1/ 340

21 . أبو الفتح عثمان بن جني:دت، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، 2/ 145

22 . تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها،1418ه، 1998م، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، ص 67 . 68

23 . صبري المتولي،1429ه، 2008م، دراسات صوتية في تجويد الآيات القرآنية، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، دط، ص 83

24 . عبد العزيز الصيغ: 1421ه، 2000م، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، ص 128

25 . الكتاب: 435/4

26 . ينظر: غانم قدوري الحمد،1428ه، 2007م، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار، عمان، ط2، ص 221 وما بعدها

27 . أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: 1425ه، 2004م، المفصل في علم العربية، دراسة وتحقيق: فخر صالح قدارة، دار عمار، عمان، ط1، ص 421

28 . صفوت محمود أحمد علي سالم: 1432ه، 2011م، المخارج والصفات في المصادر القديمة . دراسة مقارنة مع علم الأصوات الحديث . رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ص 176 نقلا عن:المرعشي، جهد المقل، ص 26

29 . الكتاب435/4

30 . نفسه: 4/ 435

31 . أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: 1415ه، 1994م، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، دط، 1/ 331 . 332

32 . أبو الفتح عثمان بن جني: دت، سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق: حسن هنداوي، 61/1

33 . صفوت محمود أحمد علي سالم: المخارج والصفات في المصادر القديمة . دراسة مقارنة مع علم الأصوات الحديث . ص 176 نقلا عن:المرعشي، جهد المقل، ص 26

34 . المرجع نفسه والصفحة نفسها.

35 . أبو الأصبع السماتي الإشبيلي المعروف بابن الطحان: 1404هـ، 1984م، مخارج الحروف وصفاتها، تحقيق: محمد يعقوب تركستاني، مركز الصف الإلكتروني، ط1، ص 88 . 89

36 . رضي الدين الأستراباذي: 1402هـ، 1982م، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،3/ 260

37 . علم الدين علي بن عبد الصمد السخاوي: دت، فتح الوصيد شرح القصيد، دار الكتب المصرية، دط، 2/ 404

38 . نفسه: 2/ 404 . 405

39 . نفسه: 2/ 405

40 . نصب بن علي بن محمد أبي عبد الله: 1414هـ، 1993م، الكتاب الموضح، تحقيق ودراسة: عمر حمدان الكبيسي، جدة، 1/ 173 وينظر: مكي، الرعاية، ص 94

41 . أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي: 1421هـ، 2000م، التحديد في الإتقان والتجويد، دراسة وتحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، ط1، ص 105 . 106

42 . ينظر: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 221 نقلا عن: جهد المقل، 12و.

43 . نفسه: ص 222 نقلا عن: أبو شامة المقدسي، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص10

44 . نفسه: ص 222 نقلا عن: بيان جهد المقل 16و

45 . تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص 132 . 136

46 . كمال بشر: 1980م، علم اللغة العام . الأصوات . دار المعارف، مصر، ط7، ص 131

47 . نفسه: ص 131

48 . إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص 42

49 . برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية، ص 14

50 . غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 261

51 . جان كانتينو: 1966م، دروس في علم الأصوات العربية، نقله إلى العربية صالح القرمادي، نشريات مركز الدراسات النحوية الاقتصادية والاجتماعية، دط، ص 36

52 . الزمخشري: المفصل في علم العربية، ص 421

53 . الكتاب4/ 435

54 . علم الدين علي بن عبد الصمد السخاوي: فتح الوصيد شرح القصيد،405/2

55 . الزمخشري: المفصل في علم العربية، ص 421

56 . تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص 113

*الأصوات الرنانة هي الحركات، ونصف الرنانة التي تبدي شبها بها مثل اللام. ينظر: سعد مصلوح،1400هـ، 1980م، دراسة السمع والكلام، عالم الكتب، القاهرة، ص 204

57. سعد مصلوح، دراسة السمع والكلام، ص 204

58. صفوت محمود أحمد علي سالم: المخارج والصفات في المصادر القديمة. دراسة مقارنة مع علم الأصوات الحديث. ص 188

59. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص 27

60. موفق الدين بن يعيش: دت، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، دط، 9/ 142. 143